الفصل الخامس

التجربة الكبرى

تجربتى فى الحياة

وانتهت مرحلة التعليم بفرنسا وقد كتبت عنها ما يشبه التقييم لها ، كتبت عنها مبيناً الأثر الذى تركته فى نفسى لأول عهدى بها ثم مبيناً ما كان بعد ذلك ثم وضحت النتيجة الموفقة التى انتهيت إليها فى نهاية حياتى بها : كتبت كل ذلك بعنوان : « التجربة الكبرى »

وأقصد « بالتجربة الكبرى » : « تجربة الهداية »

إن الله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى :

« يا عبادى كلكم ضال إلاّ من هديته . فاستهدونى أهدكم » !

ويقول سبحانه لرسوله الكريم :

« إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » . ونحن نمر بأمثال هذا الحديث الشريف ، وهذه الآية القرآنية الكريمة فلا نكاد نعيرهما التفاتاً !

وما من شك فى أن الكثير من الناس يسيرون فى الحياة حتى تنتهى بهم ، فلا يثيرهم ، ولا يسترعى انتباههم أمثال هذه النصوص ، ومن الناس من تشد هذه النصوص انتباههم فى قوة لأنهم عاشوا حياة تتصل اتصالاً وثيقاً بها !

إنهم يقفون طويلا مرددين مع رسول الله صلى الله عليهم وسلم —

فيما رواه الترمذى : عن أم سلمة أنه كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندها :

« يا مقلِّب القلوب ، ثبت قلبى على دينك ».

ومعه صلى الله عليه وسلم فى قوله – فيما رواه الإمام مسلم :

« اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا على طاعتك ».

وكنت أنا أحد هؤلاء الذين اتجهوا إلى الله يضرعون إليه بهذا الدعاء ، وأحب أن أسير مع الأمر من ابتدائه.

نشأت [1] فى أسرة تتسم فى الظاهر والباطن بالتدين ، وكان والدى رحمه الله يفرض جو التدين فى إرادة لا تلين !

لقد تعلم فى الأزهر ، ثم استقر به المقام فى القرية ، وكان معنياً بكل صغيرة وكبيرة من فروض الدين ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان يجد فى ذلك مقاومة ، ولا معارضة ، فقد كانت والدتى رحمها الله تسير على غراره ، وتتبع هواه ، فتسير فى تياره .

وحفظتُ القرآن الكريم فى « كتّاب » القرية ، ثم دخلت الأزهر ، وكانت أمورى فى قراءتى ، وفى أفكارى تسير فى الجو العادى التقليدى ثم كانت النقلة المفاجئة إلى فرنسا .

ومن أول يوم حلت فيه قدماى أرض فرنسا ، بدأت المفاهيم والمبادئ عندى تأخذ مجراها فى مختبر النقد والتفكير ، ولكنها كانت فى صورة هينة سهلة ، بل يمكن أن أقول : إنها لذيذة ، . ومن أمثلة هذه الأمور

---

(١) أعتذر للقارئ عما وقع فى هذه الكلمة من تكرار طفيف لما سبق ولعله – فى إيجازه الموجز – يساعد على إيضاح ما أحببت أن أعرف به .

الهينة أنى رأيت النشاط يدب فى جميع مجالات الحياة ، ورأيت السرعة ، وحب السرعة ، والحرص على السرعة فى كل مجال ، وفى كل مكان .

لقد رأيت الفتيات يمشين بسرعة ، ورأيتهن يتحدثن فى سرعة . وجال فى ذهنى ما كنا نقرؤه عن وصف المرأة الجميلة ، وأن من سمات جمالها ما يقوله الشاعر عن مشيتها وعن حديثها :

« مشى القطاة ونطقها إيماء »

وأخذت أوازن بين مفاهيم الشعراء القدماء فى الجمال ، ومقاييسهم فيه ، فى المشى والحديث وغيرهما ، وبين ما أرى وأسمع ، واهتزت نوعاً ما المقاييس القديمة ورأيت الرجال أكثر سرعة ، وأكثر نشاطاً وحركة ، وبدت الحياة وكأنها سرعة ونشاط ، وقفز ، وابتعاد فى كل ثانية عن الماضى واستئناف فى كل لحظة للمستقبل ، وتجديد دائم لا يهدأ أو لا يفتر قط ، وتذكرت عند ذلك وصف سيدنا عمر من أنه ، كان إذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وإذا تكلم أسمع .

ونعمت فى اللحظات الأولى من وصولى بهذا الذوق الراقى فى كل شىء ، وهذه النظافة التى تجدها أينما تسير : فى الشارع ، فى محلات البيع ، على وجوه الأطفال ، وعلى الملابس عند الكبار ، وعند الصغار على السواء وبهرتنى الحضارة الأوربية فى مظهرها هذا الخارجى ، الذى يتمثل فى النشاط والنظافة والذوق .

وكان هذا الانبهار يجعلنى أعود إلى المفاهيم الإسلامية فى النظافة وفى الجمال وأستذكر :

« إن الله جميل يحب الجمال » .

« إن الله طيب لا يقبل إلاّ طيباً » .

وقوله تعالى « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

وقوله سبحانه : « خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » .

وأتذكر هذا التراث الإسلامى الضخم ، الذى يتصل بالنظافة والنشاط والذى يعيشه الغربيون فى صورة واقعية ، فكانوا فى هذا كأنهم مسلمون مثاليين !

وأعود من الانبهار إلى الأسف ، على ما عليه المسلمون فى هذه المجالات ، مبتعدين عن الأوامر الإسلامية الصريحة

ولكنى كنت أعود فأقول :

هذا المظهر الخارجى مادام مرتبطاً بالثقافة ودرجتها ، ومادام الإسلام قد حث عليه فى قوة ، ومادمنا آخذين بأسباب الثقافة فى عناية ظاهرة . . فإننا سنصل إلى ما نرضاه فيه ، إن شاء الله . وكاد هذا أن يجعل المجال الظاهر من الحضارة الغربية فى تصورى ليس ببعيد المنال بالنسبة لنا نحن الشرقيين . .

ودخلت الجامعة ، وبدأت الدراسة فى علم الاجتماع و « علم النفس » ومادة « الأخلاق » « وتاريخ الأديان » ، وكانت هذه المواد يتزعم دراستها وتدريسها الأساتذة اليهود ، الذين تتلمذوا على الأساتذة اليهود !

وكانت هذه المواد كلها تسير فى تيار محدد ، هو : أنها « علوم مجتمع » أى أنها لا تتقيد بوحى السماء ، ولا تتقيد بالدين على أنه وضع إلهى : فهى تدرس فى موضوعاتها على أنها ظواهر اجتماعية ، وظواهر إنسانية .

وبدأنا فى الدراسة نسمع مختلف الآراء ، فى نشأة الدين ، ومختلف الآراء فى تفسير النبوة ، وينتهى الأمر برأى الأستاذ فى الموضوع . وليس فى هذه الآراء على اختلافها وتعددها – ما يتجه إلى أن الدين وحى من السماء ، أو أن النبى موصول الأسباب بالسماء ، وإذا انتظرنا من الأستاذ أن يُصحح الوضع ، فيدلى فى النهاية برأيه مثبتاً الألوهية ، والنبوة ، هادماً للآراء الأخرى ، واصفاً لها : بأنها ضلال . . ! إذا انتظرنا ذلك منه فإننا نكون واهمين فإنه واحد من هؤلاء العشرات من الأساتذة فى هذه المواد وما شابهها ، المنغمسين فى تيار المادية .

لقد فسرت الجامعات الأوربية العلم على أنه القواعد التى تقوم على التجربة والملاحظة ، والتزمت أن تفسر وأن تشرح « علم الاجتماع » « وعلم النفس » . وجميع الظواهر فى الآفاق . وفى الأنفس على هذا الأساس ، والتزمت ذلك أيضاً فى تاريخ الأديان .

وهذه العلوم بالذات وفروعها تتكاتف لتقود الإنسان متعاونة متساندة إلى الإلحاد .

إن للدين – فيما يزعمون – نشأة إنسانية ، اجتماعية ، وإن للخلق – فيما يرون – نشأة إنسانية اجتماعية ، ولقد تواضع الناس على سلوك معين ، سموه « فضيلة » ، وعلى سلوك آخر سموه : « رذيلة » !

ودراسة الدين والأخلاق إذن تتجه إلى النشأة والمظاهر وعوامل التطور ، وظواهر التطور . . . وليس للسماء فى الدراسة من نصيب ، إلا وصف لظاهرة نشأت فى المجتمع !

وكل الظواهر والمظاهر فى هذه الدراسات اعتبارية نسبية متغيرة

متبدلة لا تثبت على حال ، ولا تستقر على وضع ، لأنها فى كل يوم تتبدل حالاً بحال . !

وهذه الأفكار تتكرر فى هذه المواد : تسمعها فى « علم الاجتماع » ، وتسمعها فى « علم النفس » . وتسمعها فى دراسة مادة « الأخلاق » ، وتسمعها فى دراسة « تاريخ الأديان » ، وتسمعها فى دراسة العلوم المتفرعة من كل ذلك . !

والشاب الذى انتقل من الأقسام الثانوية إلى الجامعة يتأثر بأستاذه . فإذا كان الأساتذة متكاتفين على هدم القيم الثابتة ، والمثل العليا التى يقررها الدين ، وتقررها « الأخلاق » .

فإن الطالب الذى يعيش فى أجواء تتعاون كلها على هدم عقائده ومثله وقيمه ينتهى به الأمر – فى الأغلب الأعم من الحالات – بأن تنهار هذه القيم فى شعوره .

ومن هنا كانت الظاهرة التى تجدها فى طلبة الجامعات فى أوربا من الاستخفاف بكثير من العقائد ، وبكثير من القيم ، وينتهى الطالب بالإلحاد ، أو على أقل تقدير بالإيمان الكامن الذى لا فاعلية له ، ولا تأثير فى سلوك الإنسان .

وكنت – من غير ماشك – أضيق بكل ما يجرى فى هذه الدراسات ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمنى التفكير فى قيمة آراء الأساتذة أنفسهم فى هذه المواد .

وبدأت أفصل بين عالمين من المعرفة : عالم الماديات كالطب والطبيعة والكيمياء ، وهى أمور تحكمها التجربة ولا تتعارض مع الدين ، ولا

اختلاف فيها – وعالم التفكير المجرد فى الدين والأخلاق والمجتمع .

وأخذت أدرس فى أناة هذا الجانب الأخير من الزاوية التاريخية ، فوجدت أنه منذ أن بدأ التفكير ، بدأ فى اللحظة الأولى الاختلاف فيه ، وبدأ كل زعيم من زعمائه ينتقد الآخرين فى عصره ، وكل مفكرى عصر ينتقدون المفكرين فى العصر السابق عليه . . . وهكذا الأمر !

وما من شك فى أن هؤلاء الأساتذة الذين يدرسون لنا ينتقد بعضهم بعضاً ، فى آرائهم ، ويخطئ بعضهم بعضاً ، كما ينتقدون السابقين عليهم ويخطئونهم ، وسيصنع من بعدهم صنيعهم فيوجهون إليهم النقد ويخطئونهم ، وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها !

لقد أخذ « دوركايم » اليهودى يعمل بمعاول هدامة فى كل القيم ، والمفاهيم الدينية ، والأخلاقيـــة ، وأخذ تلميذه الأكبر اليهودى « ليڤى بروهل » ينهج منهجه ، ويسير على طريقه فى « علم الاجتماع » ، وفى « علم الأخلاق » .

وكتاب « ليڤى بروهل » : « الأخلاق وعلم العادات » مثل واضح لهذا النوع من هدم القيم . ومحاولة للقضاء على كل المثل !

فكرت إذن فى اختلاف الآراء ، أو فى هدم بعضها بعضاً فى مواجهة كل ما يقوله الأساتذة .

وكنت أقول فى نفسى – فى مواجهة كل أستاذ – سيهدمك المعاصرون لك – وسيهدمك الذين يأتون من بعدك !

ولكنى فى مواجهة كل هذه الآراء الإلحادية – كنت أتشبث بيقين لا شك فيه .

كنت أقول فى نفسى : إذا كانت الأخلاق نسبية ، فهل يأتى الزمن الذى نعتقد فيه : أن الصدق رذيلة ، أو أن الشهامة شر أو أن الشجاعة سوء ، أو أن العفة جريمة . . . أو أن كذا ، أو كذا . . !

ثم أعود إلى نفسى فأقول : كلا ! ! !

وأتساءل من جديد فى مجال العقائد : هل يأتى اليوم الذى لا نقول فيه بوحدانية الله ، أو لانقول فيه بإرادته وعلمه ؟ !

وأعود إلى نفسى وأقول : كلا !

كنت أحاول دائماً أن أردد أن هؤلاء القوم يسيرون فى طرق لا تنتهى إلى غاية . . . ما هدفهم من ذلك ؟

وما كنت أجد الإجابة على هذا السؤال آنئذ ، لكنى عرفت فيما بعد أن هذا هو المنهج اليهودى الذى رسموه بعد تفكير طويل ، والتزموا القيام به بكل الوسائل ، أو بكل الطرق ، وهو منهج التشكيك فى القيم والمثل والعقائد والأخلاق !

يستخدمون هذا المنهج فى المجالات المختلفة لإفساد المجتمعات وتحللها أخلاقياً ، ودينياً ، ويضيفون إليه العمل على إثارة العمال على أصحاب رؤوس الأموال ، وعلى إيجاد الضغائن والفتنة بين مختلف فئات الشعوب ، والثمرة التى يعملون - دائبين - على الوصول إليها : أن يكون المجتمع شاكاً ، مليئاً بالفتن ، وذلك سبيلهم إلى السيطرة !

إن اليهود يهدفون من وراء كل ذلك إلى السيطرة على العالم ، وألا يقف فى وجههم قوة من إيمان ، أو قوة من خلق ، ومن أجل ذلك تكاتفوا

على أن تكون لهم الكلمة الأولى فى الجامعات ، فى « علم الاجتماع » ، وفى « علم النفس » وفى مادة « الأخلاق » ، وفى « تاريخ الأديان » .

ولم يكن من السهل علىّ فى أثناء هذه الدراسة -الاستمساك . الواثق بالقيم والمثل ، التى نشأت عليها ، ولولا عون من الله سبحانه وتوفيق منه ، لصرت كواحد من هؤلاء الآلاف الذين يدرسون فى الجامعات الأوربية ، ثم يخرجون منها ، وقد تحطمت فى نفوسهم المثل الدينية الكريمة .

وانتهيت من هذه الدراسة . ثم كانت المرحلة التالية هى مرحلة « الدكتوراه »

وبعد تجارب هنا وهناك فى مجالات مختلفة ، من الموضوعات . وبعد تردد بين هذا الموضوع أو ذاك - هدانى الله - وله الحمد والمنة - إلى موضوع التصوف الإسلامى .

ولم يكن ذلك مصادفة ، وإنما هى هداية وتوفيق من الله سبحانه وتعالى وهى عناية أعجز عن شكر الله سبحانه وتعالى عليها ! وانغمست فى العنصر الأساسى فى موضوع الرسالة ، وهو دراسة « الحارث بن أسد المحاسبى » .

انغمست فى جو مجموعة من المخطوطات لهذا العالم الكبير . والصوفى المستنير ، ورأيت أنه قد مرت به هو الآخر - فترة - من الضيق لاختلاف الآراء وتفرقها ، والحيرة فى أيها الأحق وأيها الأصوب ؟ ثم هداه الله سبحانه إلى الطريق الأقوم ! ووجدت فى جو « الحارث بن أسد المحاسبى » . الهدوء والطمأنينة ، ولكنه ليس الهدوء السلبى ، أو الطمأنينة المعتزلة المنطوية على نفسها ، ولكنه هدوء اليقين ، وطمأنينة الثقة بما يعلم !

فقد ألقى بنفسه فى معترك المشاكل التى يثيرها المبتدعون والمنحرفون ، وأخذ يصارع مناقشاً ، ومجادلا وهاوياً ومرشداً ، متخذاً الأساس الأصيل ، والمصدر الأول : القرآن والسنة ، متخذاً ذلك مقياساً وحاكما ، متحكماً فى كل ما يقال ، أو يفعل .

وانتهيت من دراسة (الدكتوراه) وأنا أشعر شعوراً واضحاً بمنهج المسلم فى الحياة ، وهو منهج : « الاتباع » !

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كلمة موجزة عن هذا المنهج هى : إعجاز من الإعجاز ، إنه صلى الله عليه وسلم يقول :

« اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم »

وهى كلمة حق وصدق ، ثرية بالمعانى ، الطويلة ، العريضة ، يبرهن آخرها على أولها ، والنهى فى وسطها يبرهن عليه أيضاً آخرها : أى اتبعوا فقد كفيتم ، والكافى هو الله سبحانه وتعالى الذى أوحى المبادئ والأصول والقواعد ، وطبق رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك وبيّنه ، فكان تطبيقه مقياساً وبياناً ومرجعاً يرجع إليه المختلفون !

« ولا تبتدعوا فقد كفيتم » : إن الذى يبتدع هو من لا كفاية له ، ولكن الله سبحانه وتعالى بعد أن أكمل الدين ، وأتم النعمة ، فليس هناك من مجال ، ولا من حاجة إلى الابتداع .

لقد كفانا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كل ما أهمنا من أمر الدين !

وبعد أن وقر هذا المنهج فى شعورى ، واستيقنته نفسى ، أخذت أدعو إليه : كاتباً ، ومحاضراً ، ومدرساً ، ثم أخرجت فيه كتاباً خاصاً هو كتاب : « التوحيد الخالص . أو الإسلام والعقل » .

وما فرحت بظهور كتاب من كتبي . مثل فرحي يوم ظهر هذا الكتاب ، لأنه هو خلاصة تجربتي في حياتي الفكرية .

وكل ما كتبته عن التصوف ، وعن الشخصيات الصوفية فإنما يسير في فلك هذا المنهج : منهج الاتباع ! وهذا المنهج يفترض .

مقاومة الغزو الفكرى :

والغزو الفكرى له مجالات مختلفة :

١ – هناك الغزو الفكرى فى العقائد ، يتمثل فى كل هذا التراث الضخم ، الذى نقل إلى اللغة العربية فيما يتعلق بما وراء الطبيعة ، وهو تراث مختلف متعارض ، بل متناقض وهو نتاج بشرى ، يتسم بكل ما يتسم به النتاج البشرى من خطأ وضلال .

٢ – والغزو الفكرى فى نظام المجتمع : الذى يحاول أن يفرض علينا نظام المجتمعات الأوربية !

وإذا نحن سرنا فى تياره ، فإننا نصبح ولا شخصية لنا ولا ذاتية ونصبح وقد فقدنا رسالتنا التى كلفنا بتبليغها للناس ونشرها وهى رسالة الإسلام التى من أجلها كانت الأمة الإسلامية . وبدونها تصبح الأمة الإسلامية ولا مبرر لها !

٣ – والغزو الفكرى فى مجال التشريع :

وهذا الغزو الفكرى فى مجال التشريع توجد أسسه وأصوله بصورة مشروعة فى مختلف الأقطار العربية ، ممثلة فى كليات الحقوق التى

تنفق عليها الدولة وتعتمد شهاداتها !

وكليات الحقوق هذه دراستها كلها غزو فكرى ، واستعمار فكرى ودراستها كلها أثر من آثار الاستعمار : التى لم تزل بعد أن زال الاستعمار .

وإذا كانت الأمم الواعية تحاول جاهدة أن تتخلص من وصمة الاستعمار بما فيها من شرور ، ورجس ، وآثام ، فإن الكثير من الدول العربية لم تحاول أن تتخلص من وصمة الاستعمار الصارخة ، الواضحة الممثلة فى هذه الكليات .

إن هذه الكليات تخصص عشرين ساعة فى الأسبوع للقوانين الأوربية – أى للفكر الأوربى – فى التشريع ، وتفرض على الطالب أن يذاكره ويستوعبه أو يحفظه ، ويتمثله ، وينجح فيه فى الامتحان .

أى أنها تفرض على الطالب أن يستعمر فكره الأوربيون ، فى مجال التشريع ، وأن يلغى ذاتيته الإسلامية فى هذا المجال ، وأن يكون تابعاً للاوربيين فى هذا المجال ، مقلداً لهم ، تجره عجلتهم ، مستسلماً لغزوهم . وبينما تخصص هذه الكليات عشرين ساعة أسبوعياً للفكر الأوربى فى التشريع ، إذا بها تخصص ساعتين فقط للتشريع الإسلامى ! ولو أن هذه الكليات فى « فرنسا » أو فى « إنجلترا » لما فعلت أكثر من ذلك ومنهج الاتباع : إذن – يقتضينا أن ننظر فى جد فى أمر هذه الكليات لتمثل الوطنية والإسلام والعروبة .

وبعد :

فإن منهج « الاتباع » هو الخلاصة الجوهرية لتجاربى الخاصة بالطريق الذى ينبغى أن يسلكه المسلم فى حياته ، وإذا سار فيه المسلم

فرداً ، أو سار فيه المسلمون مجتمعاً ، فإن الله – سبحانه وتعالى – يكتب له الهدوء والطمأنينة والسعادة لأنه يكون فى جو ربانى ملىء برعاية الله سبحانه وتعالى .

« وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » هذا وباللهِ التوفيق .

يتلوه بإذن الله

الجزء الثانى